الزجاج والخشب

أما صناعة الزجاج فقديمة فى إيران ولا غرو فان هـذه الصناعة معروفة فى الشرق الأدنى منذ العصور القديمة وقد أشار الكاتب الاغريقى ارستوفان Aristophanes (من كتّاب القرن الخامس قبل الميلاد) فى إحدى رواياته الى استعمال كؤوس النبيذ من الذهب والزجاج فى البـلاط الايرانى . كما عثر المنقبون عن الآثار فى إقليم لورستان غربى الهضبة الايرانية على بعض أوانى من زجاج نصف شفاف ومائل الى اللون الأخضر ، وعلى أسورة من زجاج مطعم بزجاج آخر مختلف الألوان .

ومن أقـدم ما نعرفه من التحف الزجاجية الايرانية ذات الشأن صحن من العصر الساسانى وجد فى شمالى إيران ومحفور فيـه رسم طائر خرافى ، وهو محفوظ الآن فى إحدى المجموعات الأثرية الخاصة فى طهران .

ومع ذلك كله فان الأرجح أن كثيرا من الأوانى الزجاجيـة التى استعملها الايرانيون القدماء كانوا يستوردونه من سورية ، كما يشهد بذلك نوع التحف الزجاجية التى عثر عليها فى حفائر السوس والمدائن .

ولعل أقـدم ما نعرفه من الأوانى الزجاجية الايرانية فى العصر الاسلامى يرجع الى القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة (الثامن والتاسع بعـد الميلاد) ؛ ويشبه كثيرا ما عثر عليه المنقبون عن الآثار فى سامرا[1] .

---

(١) راجع C. J. Lamm: Das Glas von Samarra.

ومن التحف الزجاجية الايرانية فى فجر الاسلام نوع تزينه زخارف محزوزة من خطوط ودوائر وأشكال هندسية . وقد تمثل تلك الزخارف رسوم طيور أو حيوانات، كما نرى فى طبق مكسور، يظن أنه وجد فى أطلال مدينة الرى، وهو محفوظ الآن فى مجموعة ولفريد بكلى Wilfred Buckley، وقوام زخرفته رسم طائر خرافى[1] .

ولكن الواقع أن تميز التحف الزجاجية فى شتى أنحاء العالم الاسلامى فى القرون الأولى بعد الهجرة أمر غير يسير . بل إننا لا نجد فرقا عظيما بين بعض الأباريق الفاطمية من البلور الصخرى[2] وإبريق من نفس المادة، عثر عليه فى إيران[3]، ومحفوظ الآن فى مجموعة ولفريد بكلى سالفة الذكر[4] .

وفى كنز كاتدرائية سان ماركو بمدينة البندقية سلطانية من الزجاج الأزرق الفيروزى، محفور فيها كلمة «خراسان» وقوام زخرفتها رسوم أرانب محفورة. وأكبر الظن أن هذه التحفة من صناعة إيران أو العراق فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)[5] .

وقد وجدت فى مدينة الرى بعض نماذج أخرى من التحف الزجاجية ترجع الى القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة (١٠ — ١١ م) .

---

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٤٠ حـ .

(٢) راجع كتابنا « كنوز الفاطميين » ص ١٨٧ وما بعدها .

(٣) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٤١ أ و ب .

(٤) انظر W. Buckley : Two glass vessels from Persia فى Burlington Magazine (سنة ١٩٣٥) ص ٦٦ — ٧١ .

(٥) راجع C.J. Lamm: Mittelalterliche Gläser und Schnitarbeiten ج ١ ص ١٥٨ — ١٥٩ ، ج ٢ لوحة ٥٨ .

ثم ازدهرت بعد ذلك صـناعة الزجاج فى إيران ، وصارت تصنع منها التحف المختلفة الأشكال ، ونجح الصناع فى الوصول إلى ضرب من الزجاج الأبيض المضغوط يقلدون به البلور الصخرى الذى كان يستعمل فى مصر على يد الفنانين فى الدولة الفاطمية . واستخدم الزجاجون الايرانيون شتى أنواع الصناعة فى الزخرفة، من ضغط وحفر وبروز وأسلاك ملفوفة ؛ وكانوا يصنعون التحف الزجاجية الصغير على شكل حيوان، كما يظهر من سمكة زجاجية صغيرة عثر عليها المنقبون فى مدينة الرى . أما موضوعات الزخرفة فكانت خليطا من الرسوم الهندسية والفروع النباتيـة والكتابات ورسوم الحيوان[1] ، بل والرسوم الآدمية فى بعض الأحيان[2] .

وقد عرف الايرانيون طلاء الزجاج بالمينا ، كما يظهر من النماذج التى عثر عليها فى شيراز وهمذان ونيسابور وسمرقند والرى وساوه (انظر شكل ١٦٨) .

ويلوح أن غزو المغول قضى على ازدهار صـناعة الزجاج فى إيران ، كما يظهر من ندرة التحف الزجاجية الايرانيـة التى يمكن نسبتها الى إيران بين القرنين السابع والتاسع بعد الهجرة (الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد) .

ولكن المعروف أن أحد الشـعراء فى بلاط تيمور فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) كتب أن هذا العاهل الكبير جمع فى سمرقند نخبة من أمهر صانعى الزجاج فى ذلك العصر فازدهرت هـذه الصناعة على يدهم .

---

(١) انظر C. J. Lamm : Glass from Iran in the National Museum, Stockholm

(٢) A Survey of Persian Art ج ٦ ، لوحة ١٤٤٤ ب .

ومن التحف الزجاجيـة التى يمكن نسبتها الى مصانع الزجاج التى قامت على يد الزجّاجين السوريين فى سمرقند صحن من الزجاج فى المتحف البريطانى (انظر شكل ١٦٩)، وهو عسلى اللون ومموّه بالمينا، وقوام زخرفته رسم إنسان أو ملاك ذى جناحين وفى يده قنينة نبيذ إيرانية الشكل .

وذاعت فى القرنين العاشر والحادى عشر بعد الهجرة (١٦ — ١٧ م) صناعة الأباريق والقنينات الزجاجيـة الطويلة المشوقة (انظر الأشكال ٩٨ و ١٧٠ و ١٧١) .

وكانت شيراز أعظم مراكز هذه الصناعة، كما شهد بذلك بعض الرحالة الذين زاروا إيران فى ذلك العصر ولا سيما شاردان Chardin وهربرت Herbert وتافرنييه Tavernier . وكان الزجاج فى شيراز أبيض أو أخضر أو أزرق، ولم تكن به زخارف مقطوعة أو محفورة .

والأرجح، بوجه عام، أن صناعة الزجاج لم تلق فى إيران ما لقيته سائر الصناعات الفنية من عناية . ولعل كثيرا من النماذج التى يعثر عليها المنقبون فى إيران ليست من صناعة البلاد نفسها ؛ وإنما استوردتها من سائر أنحاء الشرق الأدنى . وأما منتجات القرنين العاشر والحادى عشر بعد الهجرة (١٦ — ١٧ م) فلا شك فى أنها صنعت فى إيران، وأنها تأثرت بالأساليب الفنيـة التى نقلها بعض صناع الزجاج الذين قدموا من مدينـة البندقية . ومهما يكن من الأمر فان ألوانها جميلة وفيها أشكال كانت وقفا على إيران؛ ولكنها ليست ذات شأن فنى عظيم .

وقد عرفت بعض المدن الايرانيـة منذ فجر الاسـلام بمهارة أبنائها فى صناعة التحف وقطع الأثاث من الخشب . وكان على رأس هذه المدن

الرى وقم ، فازدهرت فى الأولى صناعة الأمشاط والأوانى كما اشتهرت الثانية بصناعة الكراسى من خشب الخلنج[١] المأخوذ من غابات طبرستان[٢] .

على أن أقدم ما نعرفه الآن من التحف الخشبية الايرانية عمودان وثلاث حشوات من الخشب المحفور ، كشفها الأستاذ أندريف Andreieff فى إقليم تركستان الغربى[٣] . وأكبر الظن أنها ترجع الى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . أما زخارفها فتشبه بعض الزخارف الجصية التى توجد فى سامرا ، وزخارف العصر الطولونى وبداية العصر الفاطمى فى مصر ، والزخارف الجصية فى نايين[٤] ؛ وقوامها رسوم أنواع مختلفة من الزهور محورة عن الطبيعة تحويرا كبيرا ومحفورة حفرا عميقا .

وثمة أبواب خشبية كانت فى قبر محمود الغزنوى وترجع الى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وهى محفوظة الآن فى قلعة أجرا بالهند . وكان فى باطن هذه الأبواب حشوات خشبية تشبه فى زخارفها التحف الخشبية التى عثر عليها فى إقليم تركستان الغربى[٥] ؛ أما

(١) الخلنج كلمة فارسية معربة لنوع من الشجر يؤخذ منه خشب ثمين تصنع منه السفن والأوانى .

(٢) أنظر Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate ص ٢٢٧

(٣) راجع B. Denike : Quelques monuments de bois sculpté au Turkestan Occidental فى مجلة Ars Islamica (سنة ١٩٣٥) ص ٦٩ — ٨٥

(٤) راجع كتابنا « الفن الاسلامى فى مصر » ص ٢٤ — ٣١ و ٦٨ — ٧٨ و ٩١ — ٩٩ ؛ Pauty : Les bois sculptés Jusqu'à l'époque ayyoubide لوحات ١٢ — ١٥ ؛ و Ettinghausen: Ägyptische Holzschnitzereien aus Islamischer Zeit فى مجلة المتاحف الألمانية Berliner Museen (سنة ١٩٣٣) ص ١٩ شكل ١٥

(٥) أنظر A Survey of Persian Art ج ٦ ، ١٤٦٢

سطحها الخارجى ففيه أربع حشوات مزينة بأشكال نجمية من الخشب ذى الزخارف العجيبة فى دقتها[١] ، والتى يتجلى بها توفيق الفنان فى تنويع سطح الرسوم و بروز الزخرفة ، تنويعا يجعلها متعددة الأسطح ، وتبدو كأن بعضها يظهر من ثنايا البعض الآخر أو يتحرك فوقه ؛ ولا عجب فقد كانت غزنة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) مركزا عظيما من مراكز الثقافة الايرانية ، وازدهرت فيها الفنون ونما فيها طراز فنى امتاز بنضوجه و بثروته الزخرفية .

وفى مجموعة رابنو ثلاث حشوات من الخشب متشابهة فى شكلها ومزينة بكتابة بالخط الكوفى البسيط ذات حروف بارزة وجميلة . ويحيط بكل حشوة منها شريط من الكتابة ، يضم بين جانبيه إطار من منطقة ذات زخرفة من فروع نباتية متصلة وينتهى هذا الاطار المدبب فى أعلاه بمنطقة مثلثة تشبه المروحة . وفى الاطار والمنطقة المذكورة كتابات على إحداها اسم عضد الدولة وتاريخ « سنة ثلث وستين وثلث مائة »[٢] .

وفى دار الآثار العربية بالقاهرة حشوة خشبية من هذا الطراز وعليها نفس التاريخ[٣] (انظر شكل ١٧٢) . وفيها حشوة أخرى ، قوام زخرفتها موضوع زخرفى نباتى ، يعلوه سطران من الكتابة الكوفية ، وتحف به كتابة أخرى فى شريط على هيئة عقد إيرانى[٤] ، مما يجعل هذه الحشوة تشبه المحاريب

(١) أنظر G. Migeon : Manuel d'art musulman ج ٢ ص ٢٩٣ شكل ١١٣

(٢) راجع Wiet: L'Exposition persane de 1931 ص ١٠ — ١١ ، ولوحة ١٢

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢ وما بعدها .

(٤) المصدر نفسه ، لوحة ١٢

الايرانيـة التى عرفت فى القرن الثـامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . وزخارف هـذه التحفة تمتاز باتزانها وتوافقها وحسن توزيعها وبعـدها عن الطبيعة ؛ وهى بارزة بروزا أساسـه حفر الأرضية التى حولها لتبدو الزخرفة بارزة فوقها . ولسـنا نعرف تمـاما مصدر هاتين الحشوتين المحفوظتين فى دار الآثار العربية ؛ فانهما تشـيران الى ضريح شيعى ربمـا كان فى إيران نفسها أو فى بلاد الجزيرة ؛ وقد كان عضـد الدولة فى التاريخ المذكور يحكم من إيران مقاطعات خوزستان وفارس وكرمان .

وفى معرض فرير Freer Gallery باب جميل ينسب الى نهاية القرن الخامس الهجرى[1] (الحادى عشر الميلادى)؛ قوام زخرفتـه مناطق مستديرة ومتصلة، ومكونة من دوائر ذوات مركز واحد، فيها كتابات بالخط الكوفى المزهر، وفى أكبر هـذه المناطق — وهى الوسطى — موضـوع زخرفى نباتى . وبين تلك المناطق مربعات صغيرة مزينة بوريقات نباتية . ويتجلى فى زخرفة هذا الباب بعض الأساليب التى نعرفها فى زخارف الأبواب المعدنية.

وفى المتحف المتروبوليتان بنيويورك حشـوة خشبية مؤرخة من سـنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) وعليها اسم الأمير علاء الدولة كرشاسب فى كتابة كوفية محصورة بين رسم عقد إيرانى، تحف به منطقتان من الزخارف النباتية[2]. وقد كان الأمير عاملا على يزد من قبل السلاجقة .

---

(١) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ ، لوحة ١٤٦١

(٢) انظـر Wiet : Inscriptions coufique de Perse فى المجـلد ٦٨ من منشورات المجمع الفرنسى (Mémoires de l'Institut Français, t. LXVIII Mélanges Maspero, vol. III) ؛ وراجع Wiet : L'Exposition persane de 1931 ص ٢٨ — ٢٩

وثمة تحف خشبية أخرى من العصر السلجوقى، جلها من قونية، ومن أخطرها شأنا منبر جامع علاء الدين فى تلك المدينة، وزخارفه محفورة ومخرمة وتسود فيها الزخارف الهندسية على شكل الاطباق النجمية التى أقبل عليها الفنانون المصريون فى عصر المماليك[1]، وعلى هذا المنبر كتابة تفيد أنه عمل « الحاجى الأخلاطى » سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م)[2]. ومنها كذلك باب خشبى فى المتحف الإسلامى باستانبول، عليه زخارف قوامها دائرة ذات أطباق نجمية فيها رسوم نباتية، وفوق الدائرة وتحتها رسوم أسدين وغريفونين، وترجع هذه التحفة الى القرن السابع الهجرى[3] (الثالث عشر الميلادى). والحق أن هذا المتحف يشتمل على بعض تحف أخرى من العصر السلجوقى؛ ولكنها من آسيا الصغرى[4].

وقد استخدم الفنانون الإيرانيون فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) العناصر الهندسية فى زخرفة الخشب، كما استعملوا الرسوم النباتية فى الأساليب الفنية الإيرانية. ومن أبدع أمثلة الزخارف الهندسية ما نراه فى سقف بمدخل الإيوان الرئيسى فى المسجد الجامع بشيراز[5]. كما أننا نجد أمثلة دقيقة من الزخارف النباتية فى بعض المنابر المصنوعة فى القرن الثامن

(١) راجع Migeon: Manuel d'art musulman ج ١ ص ٣٣٠ شكل ١٣٩؛ Sarre: Seldschukische Kleinkunst ص ٢٧ — ٢٨ ولوحة ٦

(٢) انظر Répertoire chronologique d'épigraphie arabe ج ٨ ص ٢٨٩ رقم ٣٢٠٠

(٣) انظر E. Kühnel: Die Sammlung Türkischer und Islamischer Kunst in Tschinili Kösek ص ١٧ لوحة ١١

(٤) المصدر السابق، ١٢ — ١٧

(٥) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٦٤ أ

الهجرى[١] (الرابع عشر الميلادى)، وفى بعض الأبواب وكراسى المصاحف . ومن الأخيرة كرسى مصحف من الخشب المخـرّم والمطعم ، مؤرّخ من سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ م) ومحفوظ الآن فى المتحف المترو پوليتان بنيو يورك وعليه اسم صانعه حسن بن سليمان الأصفهانى[٢] . (أنظر شكل ١٧٣) . وثمة قطع أصاب بها الفنان توفيقا عظيما فى الجمع بين الزخارف النباتيـة والرسوم الهندسية، مثـل أبواب مسجد أحمـد يسوى فى تركستان وهى مؤرّخة من بداية القرن التاسع الهجرى[٣] (١٣٩٧ — ١٢٩٩ م)، وعليها اسم صانعها : « عز الدين » .

وزاد ازدهار صـناعة الحفر فى الخشب إبان القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميـلادى)، كما يظهر فى باب ذى زخارف محفورة وملوّنة، وهو من خشب الجوز وموجود فى جامع شاه زنده بمدينة سمرقند[٤]، وكما يظهر كذلك فى بابين من قبر تيمور (جورامير) محفوظين الآن فى متحف الهرميتاج

---

(١) كتب الأستاذ برونشتاين Leo Bronstein (فى المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦١٧) أن بين هذه المنابر منبرا خشبيا بالمسجد الجامع فى تابين (انظر المصدر نفسه ج ٦ لوحة ١٤٦٤ ب)؛ ولكننا لا نوافقه على هذا الرأى وأكبر الظن أن هـذا المنبر يرجع الى القرن الخامس أو السادس بعد الهجرة (١١ — ١٢ م) . وحسبنا أن صلته وثيقـة بالزخارف التى نعرفها فى سامرا وفى الطراز الطولونى وفى الرسوم الجصية بجامع تابين .

(٢) انظر Dimand : A dated Koran-stand (Bulletin of the Metropolitan Museum of Art, XXII) ص ١١٥ — ١١٧ ؛ وراجع : Dimand : Dated specimens of Mohammedan art in the Metropolitan Museum of Art, Part I (Metropolitan Museum Studies) ص ١٠٢ — ١٠٥

(٣) انظر A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٦٧

(٤) انظر Migeon: Manuel d'art musulman ج ١ ص ٣٣٥ وشكل ١٤٢

Hermitage[1] (انظر شكل ١٧٥) وفى بعض أبواب المساجد والمدارس، مما وفق الصناع فيه الى أدق الزخارف النباتيـة والهندسية مع أجمل الكتابات بالخط الكوفى والنسخى والثلث .

وكان إقليم مازندران مشهورا بغاباته الواسعة وأخشابها الثمينة ؛ وقد عثر فيه على بعض تحف خشبية نفيسـة، معظمها أبواب وتربات عليها تواريخ صناعتها وأسماء صانعيها[2]، وللكتابة فى زخرفة هذه التحف المكان الأول .

ومن التحف الخشبية فى القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) مصراع باب من خوقند فى فرغانة ومحفوظ الآن فى المتحف المتروليتان[3] . وقوام زخرفته رسوم غائرة من الفروع النباتية والأرابسك ويحف بها إطاران من فروع نباتية أقل منها عمقا فى الحفر .

ومما ينسب الى القرن نفسه مصراعان من باب خشبى ، عليهما « عمل على بن صوفى البـاسانى » سنة ٩١٥ هـ (١٥٠٩ م .) ومحفوظان بالمتحف الأهلى فى طهران (انظر شكل ١٧٦) ؛ ولكننا نرى فى هاتين التحفتين — وفى غيرهما من التحف الخشبية المنسوبة الى القرنين العاشر والحـادى عشر بعـد الهجرة — برودا وجفافا ينذران بانحطاط صناعة الحفـر فى الخشب فى ذلك العصر الذى سادت فيه فنون الألوان من سجاد وتصوير وخزف .

(١) A Survey of Persian Art ج ٦ لوحة ١٤٦٨ و ١٤٧٠

(٢) المصدر السابق ج٣ص ٢٦٢٢ وما بعدها ؛ و H.L. Rabino: Mazandaran and Astrabad .

(٣) راجع Dimand: Handbook of Mohammedan Decorative Art ص ٩٤ وشكل ٤٢

* * *

وثمة صناعات فنية أخرى أتيح للايرانيين أن ينبغوا فيهـا؛ ولكن المجال يضيق عن إيفائها حقها من الدرس فى هذا الكتاب .

فالحلى والجواهر كان لها شأن عظيم فى الحياة الاجتماعية الايرانية، ولاسيما فى البلاط، وفى ملابس أهل الطبقة العالية؛ فلا عجب إن تخصص فى صناعتها مهرة الفنانين فى زنجان و إصفهان وتبريز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية فى إيران ، فضلا عن الفنانين الذين عكفوا على صناعة الأوانى الفاخرة من الذهب والفضـة وتزيينها بالجواهر والمينا لتستعمل فى الحفلات وسائر المناسبات العظيمة . ومن تلك الأوانى صحن ذهبى فى مجموعة كازرونى بك فى القاهرة، يظهر بعض التأثير الأوربى فيما عليـه من رسوم الزهور والطيور بالمينا (انظر شكل١٦٧). وعلى هذا الصحن كتابة تدل على أنه هدية من فتح على شاه الى السياسى المستشرق الانجليزى السر جور اوسلى Sir Gore Ouseley سـنة ١٢٢٨ هـ (١٨١٣ م) . وفى وسطه رسم أسد تحته العبارة الاتيـة : رقم محمد جعفر .

والواقع أن قصور إيران لا تزال عامرة بالتحف النفيسة التى ترجع إلى القرون الثلاثة المـاضية، والتى تمتاز بمادتها الثمينة وصناعتها الدقيقة؛ ولكن تأثرها بالأساليب الفنية الغربية ، تأثرا يختلف مداه ، يحملنا على اعتبارها تحفا تدل على الثروة والأبهة أكثر ممـا تدل على الذوق الفنى والأساليب الزخرفيـة التى عرفت عن الايرانيين فى عصورهم الذهبية .

ولا يفوتنا فى هـذا المقام أن نشير الى عرش الشاه اسماعيل الصفوى والى العـرش المعروف باسم عرش الطاووس . اما الأول فمحفوظ الآن فى استانبول ؛ وهو غاية فى دقة الصناعة و جمال الزخرفة . والثـانى فى قصر جلستان بمدينة طهران ، وهو فاخر جدا و يذهب كثير من العلماء الى أنه صنع فى القرن الثانى عشر بعد الهجرة (الثامن عشر الميلادى) من مواد العـرش القديم الذى غنمه نادر شاه أثناء حروبه فى الهند .